الإمام
مالك بن أنس

- عاشق المدينة التى لم يغادرها إلا لحج أو عمرة!.
- فقهه انتشر فى أنحاء العالم الإسلامى.
- ضربوه بالسياط وخلعوا كتفه!

الإمام مالك بن أنس

الإمام مالك بن أنس أحد الأئمة الأربعة الكبار. . اعتنق مذهبه الملايين فى أنحاء العالم الإسلامى. . عاش حياته كلها فى المدينة ، فقد عشق المدينة التى عاش فيها الرسول ﷺ بعد الهجرة وصحابته الكرام، ولم يخرج من هذه المدينة إلا للحج والعمرة.

وقد عرف الفقر فى أول حياته، كما عرف حياة الثراء عندما أصبح إماماً كبيراً، وأصبح له أعطيات من بيت المال. . وكان يلبس أجمل الثياب كما كان يعتنى بمأكله وملبسه. . وكان طويلا أشقر شديد البياض، أصلع الرأس، طويلا. . مهيباً. . ومع علمه الغزير لم يسلم من اضطهاد الولاة.

ولد مالك بن أنس سنة ٩٣هـ، وقال البعض الآخر سنة ٩٧هـ وتوفى سنة ١٧٩ هـ - . . وقد حفظ القرآن صغيراً، وأخذ العلم على علماء المدينة فى المسجد النبوى الشريف، وحفظ كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة ، فقد كانت المدينة بحكم وجود الرسول والصحابة بها على علم بسنة النبى عليه الصلاة والسلام، وأفعال الصحابة ، وكانت مدرسة المدينة تختلف عن مدرسة العراق، مدرسة المدينة تتمسك بالسنة متمثلة فى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام. ومدرسة العراق تتمثل فى الرأى.

وقيل عن لسان (ربيعة) وكان أحد أساتذة مالك وقد ذهب وعاد من العراق. . أنه قال عقب عودته من العراق إلى المدينة عندما سئل عما رأى فى العراق؟

قال:

- رأيت قوماً حللنا حرامهم ، وحرمنا حلالهم، وتركت بها أكثر من أربعين ألفاً يكيدون هذا الدين.

- وكان أهل المدينة يلجأون إلى الرأى عندما لا يجدون النص.

كان من الطبيعى أن يلجأ أهل المدينة إلى النصوص حيث الحياة كانت بسيطة غير معقدة، بعكس العراق التى تداخلت فيها الحضارات المختلفة، فكان لابد من استخدام العقل لاستنباط القواعد التى لا تتنافى مع الكتاب والسنة.

وكان من رأى الإمام مالك بعد أن درس على فقهاء عصره فى المدينة، وتبحر فى العلم والحديث، وأصبح يُعلم الناس أمور الدين.. كان يقول:

«لايؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به».

وقد ظل الإمام يجمع (الموطأ).. وهو يحوى الأحاديث النبوية الشريفة لعدة سنوات، ويحذف منه ما تبين عدم صحته.

كان الإمام إذن يعتمد على أهل المدينة على أساس أن المدينة كانت دار الهجرة للرسول الخاتم، ونزل بها القرآن فما أجمع عليه أهل المدينة لا اختلاف عليه، ولأنهم يعرفون الناسخ والمنسوخ.

ومع أن الإمام مالك كان يؤمن بعمل أهل المدينة وقول الصحابة، فإنه فى نفس الوقت كان لا يغفل باب الرأى تماماً، فأصول مذهبه تعتمد على المصالح المرسلة.

وكان كتابه (الموطأ) الذى جمع فيه الأحاديث النبوية الشريفة، من أهم الكتب فى الفقه والحديث.

وعندما حاول المنصور أن يحمل الناس على الموطأ قال له الإمام مالك:

«لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وردوا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق لهم، وعملوا به ودانوا، وقد أصبح ردهم عما اعتقدوه شديداً.. فدع الناس وما هم عليه».

قال يحيى بن معين:

- كان مالك من حجج الله تعالى على خلقه، إمام لا يبلغ الحديث إلا صحيحاً ولا يحدث إلا عن ثقات الناس.

وقال الإمام الشافعى عنه:

- إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك.

كان الإمام بن أنس عفيف النفس، عرفه إمام مصر الليث بن سعد عندما ذهب إلى الحج ومر بمسجد الرسول ﷺ، وسمع فيه لعلماء المدينة، وصادق الإمام مالك وهو مازال فى مرحلة التعليم، وعرف أنه كان يعيش حياة زاهدة.. وأنه لم يكن يملك الكثير فصادقه، وكان الإمام الليث من أكبر علماء مصر، بل يرى البعض ومنهم الإمام الشافعى أنه كان أفقه من مالك لولا أن تلاميذه لم يسجلوا له علمه، فأضاعوه بعكس الإمام مالك الذى دون علمه فى «الموطأ».

وكان الإمام الليث ثريا واسع الثراء، فكان يرسل للإمام مالك ما يحتاج إليه من مال، إلى أن أصبح للعلماء الحق فى أعطيات بيت المال حتى يتفرغوا للعلم.. وكان الإمام من الذين طالبوا أن يكون للعلماء نصيب فى بيت المال.. وقد تحقق ذلك فيما بعد، وبالتالى كف عن البحث عن المال، وتفرغ للعلم.. وأصبح يلبس أجمل الثياب، ويأكل أطيب الطعام، ويفرش بيته بأجمل الأثاث، وفى نفس الوقت كان كثير العطف على الفقراء والمساكين ويقدم لهم المال.

وكان الإمام مالك لا يحب الغيبة والنميمة ويكره من يتسم بهما، فهو القائل:

- «كان عندنا بالمدينة قوم لا عيوب لهم، فتكلموا فى عيوب الناس، فصارت لهم عيوب، وكان عندهم قوم لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس فنسيت عيوبهم».

كان الإمام لا يقول إلا الصدق.. وكان متواضعاً لا يدعى أنه يعلم كل شىء بل أنه كان يقول المسألة ليس متيقنا من الإجابة عنها أنه لا يعلم، وليس مثل الكثيرين من أشباه العلماء الذين يفتون بما لا يعلمون..

كان يؤمن إيماناً راسخاً بأمانة العلم، حتى أن رجلاً جاء يستفتيه فى مسألة فقال له: لا أُحسنها.

فقال له الرجل:

- قد ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عن هذا القول وتقول لى : لا أحسنها.. ماذا أقول لأهلى:

قال له الإمام :

- قل لهم سألت مالكا فقال لا أحسنها.

وعلى حد قول أحمد أمين، فإن كانت مدرسة أبى حنيفة وقد وسعت الفقه بكثرة الفروع، وبما يستلزمه ذلك من رأى وقياس واستحسان ، وبمواجهة المشاكل المعقدة التى قدمتها لها المدينة الضخمة، والتى قدمتها لها بقايا الأمم الممتدة فى العراق من أشوريين وكلدانيين وفرس وغيره، فإن مدرسة مالك قد أثرت فى الفقه بما نقلت من أحاديث كانت وافرة فيها بحكم قيام الرسالة فيها، وكثرة الصحابة بها، وبما قدمت من أشكال وأوضاع تداولها سكان المدينة جيلاً بعد جيل، وأهل المدينة فى ذلك أوثق.. فقد شهد الأولون منهم النبى ﷺ يتوضأ على نحو خاص، ويصلى على نحو خاص، وعرفوا مقدار المكاييل والموازين التى كانت تستعمل لعهده فنقلوا ذلك كله إلى من بعدهم من طريق الاخبار أحياناً، ومن طرق التوريث أحياناً أخرى، وتسلسل ذلك إلى مالك ومدرسته، ثم كان من أصحاب المذهبين من ينتفع بمزايا كل الآخر، فيرحل محمد بن الحسن الحنفى إلى المدينة يمكث فيها ثلاث سنين ويروى الموطأ ، ويعود إلى العراق مزودا بالآثار، ويذهب أسد بن الفرات ويمكث فى العراق طويلاً، ويعود إلى مصر والقيروان مزودا بكثرة الفروع، وبذلك وأمثاله تأثرت المدرستان، وتقارب المذهبان.

لقد عاش الإمام مالك بعيداً عن السياسة لا يخوض فيها ولا يتحدث عنها، وكان يرى أفضلية أبى بكر وعمر وعثمان عن الإمام على الذى اعتبره واحداً من الصحابة.

وكان لهذا السبب قريباً من الأمويين، لأنه لم يكن يناصر الإمام على بن أبى طالب، كما كان قريباً للعباسيين لنفس السبب.

فقد آثر أن يبعد عن السياسة، وهو قد علم ما جرته السياسة على من يسير فى تيارها إلى ما لا يحمد عقباه. . ويعرف ما حدث لآل البيت بسبب السياسة.

ولكن مع ذلك لم يسلم من السلطة وأصيب بمحنة وضرب بالسياط وخلعت كتفه!!

- كيف.

- كان يشرح الحديث الشريف : «ليس على مستكره يمين».

وكان يضرب مثلا أن من طلق مكرها لا يقع منه طلاق.

وما قاله الإمام يتفق مع المنطق والدين.

ولكن حدث أن ثار على الخليفة المنصور محمد النفس الزكية أحد أحفاد الإمام الحسن لأنه أخذ البيعة لنفسه بالقوة، وبالتالى بايعه الناس على كره وتطبيقاً لهذا الحديث الذى شرحه الإمام مالك «ليس على مستكره يمين» أن خرج البعض مؤيدين حفيد الإمام «الحسن» على أساس أنهم استكرهوا بإعطاء البيعة للخليفة المنصور.

ووجد الخليفة إن الإمام بشرحه هذا الحديث للناس يؤلب الناس على الخلافة، فأصدر أوامره لحاكم المدينة أن يأمر الإمام مالك أن يكف عن ترديد هذا الحديث.

ولكن الإمام مالك لم يمتنع. . لا لأنه يريد من الناس الثورة على العباسيين، ولكن أمانة العلم تدفعه إلى قول هذا الحديث وشرحه.

فما كان من والى المدينة أن أمر رجاله بضرب الإمام مالك بالسياط، وجروه على الأرض حتى انخلع كتفه.

وحددوا إقامته فى منزله لا يغادره!!.

وعندما استقر الأمر للمنصور بقضائه على ثورة النفس الزكية وأتباعه ، أمر المنصور والى المدينة أن يسترخى الإمام مالك ويطلق سراحه، وحدث أن جاء الخليفة

إلى الحج، وأثناء زيارته لمسجد الرسول ﷺ فى المدينة استقبل الإمام مالك واعتذر له عما حدث وقال له:

- أنا ما أمرت بالذى كان ولا عملته.. إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإنى أخالك أماناً لهم من عذاب، ولقد رد الله بك عنهم سطوة عظيمة فإنهم أسرع الناس إلى الفتن وأخذ الخليفة يسترضيه حتى رضى .. كما أقنعه أن يضع كتاباً فى الفقه وأقنعه بذلك فعكف على كتابه الموطأ حتى أتمه.

وقد روى البعض عنه أنه سئل عن الخارجين على الخلفاء هل يجوز؟

وأجابهم:

- إن خرجوا على مثل عمر بن عبدالعزيز فهم يكن مثله؟

قال : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما.

وقيل أن هذه الكلمة قد وصلت إلى سمع والى المنصور، وكانت سبباً فيما تعرض له من محنة.

ويقول عبدالرحمن الشرقاوى عن فقه الإمام مالك أنه ذاع فى كل الأمصار والأقطار وكان فى هذا الفقه ما يحمل له عناصر التجديد، كالأخذ بمراعاة تحقيق المصلحة إن لم يوجد نص يبيح أو يمنع، وهو نظر أخذه من فقه الإمام جعفر الصادق بإعماله العقل فى استنباط الحكم حيث لا يكون نص، وحكم العقل يقضى بالبحث عما يجلب المنفعة ويبعد الضرر تحقيقاً لمقاصد الشريعة.

وقد نما فقه مالك واتبعه كثير من المفكرين والمجتهدين والفقهاء من بعده منهم فيلسوف الأندلس ابن رشد.

غير أن بعض معاصرى مالك عارضوه معارضة عنيفة وخالفه ونقده بعض أصحابه منهم الليث بن سعد فقيه مصر، وتلميذه الشافعى وقد أرسل إليه صاحبه الليث بن سعد رسالة طويلة ذكره فيها بأن عمل المدينة لم يعد سنّة بعد ولا يمكن اتباعه بعد عصر الرسول والخلفاء الراشدين .. فالصحابة خرجوا من المدينة بعد مقتل عمر ، وتفرقوا فى الأمصار وبثوا فيها فقههم.

لقد كان أوائل أهل المدينة فى زمن الرسول عليه السلام هم خير الأوائل، أما أواخرهم فى زمن مالك فلم يعودوا كذلك بعد. . ولم ينس الإمام الليث بن سعد فقيه مصر أن يسأل صاحبه الإمام مالك بن أنس إن كان فى حاجة إلى مال.

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مالك وتلاميذه فقد عارض مذهب الإمام وتجدد حتى لقد أخذت منه قوانين الأحوال الشخصية فى مصر فى مطلع القرن الميلادى حتى القوانين الأخيرة ١٩٧٩م من هذا المذهب.

على أن الذين خالفوا الإمام مالك بن أنس من صحبه وتلاميذه وكانوا يحملون له كل الإجلال والتقدير والاحترام. .

قال عنه تلميذه الشافعى:

إن ذُكر الحديث فمالك هو النجم الثاقب أما صاحبه الليث بن سعد الذى صاحبه عمراً طويلاً، وراسله وواصله بالمال والهدايا، واختلف معه آخر الأمر فقد قال عنه أثناء الخلاف. . وعلى الرغم من الخلاف . . مالك وعاء العلم.

وظل الإمام مالك نور هداية للناس فى عصره وظل نور هداية للناس من بعده. . ومازال مذهبه يعتنقه الملايين من البشر فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه. . وسيظل مذهبه منارا لكل من يريد أن يعرف أمور دينه . . رغم أنه وسد الثرى فى ١٧٩ هـ ، ودفن بالبقيع.